هجرة الرسول

للأستاذ أنور العطار

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي . وقلة حيلتي . وهواني على الناس . يا أرحم الراحمين إلى من تكلني ؟ إلى عدو يتجهمني . أم إلى قريب ملكته أمري ؟ إن لم يكن ساخطا علي فلا أبالي . أعوذ بنور وجهك الذي أضاءت له السموات والأرض ، وأشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن تحل علي غضبك ، أو تنزل علي سخطك . ولك العتبى حتى ترضى . ولا حول ولا قوة إلا بالله)

— من أدعية الرسول قبل الهجرة —

ياسيد الخلق يانور الوجود سرت ... بأضلعي اليوم من نجواك أصداء

رفت حياتي بها بشرا وزغردة ... فالقلب تسبيحة في الثغر سجواء

من جود كفيك أنداء وأخيلة ... ومن سخائك للعافين إغناء

حببت فيك قريضي حين قربني ... إلى حماك فشعري منك إدناء

ربحت بالحب في سري وفي علني ... ولذ لي في هواك السمع إغشاء

لولا هواك لما أبدعت قافية ... والكون لولا الهوى بهماء جرداء

والقلب لو لم يعذب لم يصغ نغما ... إن العذاب لتلحاف ومعطاء

وأنت أيقظت في الحب فانتشرت ... على محياي أفراح وآلاء

وأنت أغنيتني حسا وعاطفة ... كأنما أنا إلهام وإيحاء

وأنت غمرتني حبا ومرحمة ... فليس يعلق بي حقد وبغضاء

وأنت صفيتني كالينبع منسكبا ... والنبع منذ كان أنغام وصهباء

وأنت أزهدتني في الناس كلهم ... فهجر أطيافهم للنفس إبراء

والبعد عنهم نجاة من أذيتهم ... وما يطاق الأذى ، والبعد إنجاء

ما ارتاح قلبي إلى غشيان عالمهم ... كأنهم حمن سود وأوزاء

ولا ارتضت مهجتي دنياهم سكنا ... وقد علتها شكايات وضوضاء

هم علموا القلب أن ينأى مطامعهم ... فما لدنياهم زهو وإغراء

كأنما هي دار لا أنيس بها ... فآدم اليوم صدت عنه حواء

خذ يا فؤادي حذرا من مفاتنها ... ولا تغرنك فالرقطاء رقطاء

من ظن في سمها الترياق حاق به ... من جرعة السم إهلاك وإفناء

مالي وللناس لا أحيا بألفتهم ... وإنما أنت لي بعث وإحياء

مذ هام قلبي بكم ما اختار غيركم ... ولا صبا ، وقلوب الناس أهواء

أقضي ليالي في نجواك منفطرا ... كما تفطر يوم الوحي سيناء

كأنما خاطري شدو وهينمة ... رجفة من جنان الخلد فناء

شدت لها الورق ألحانا مخايلة ... فصفقت في شعاب الدوح أحناء

ظلت تنغم في صدري وفي خلدي ... قصيدة من دموع القلب عصماء

الكون ما الكون ؟ شطر من روائعها ... والمصطفى روحها والناس أجزاء

رنت إليها الدراري في مباهجها ... وفاض منها على الأيام نعماء

وبش في الفجر إصباح يمور سنا ... وهش في عتبات الليل إمساء

تلكم رغادة دنيا قد كلفت بها ... أولت نداها وكم للسعد إيلاء

أملت على بليغ القول محكمه ... إن البلاغة إيحاء وإملاء

كانت بصدري أسرارا مغلقة ... ما إن يعاودها بوح وإفضاء

ما أفصح الشعر عنها حين أعلنها ... وكيف يفصح تلميح وإيماء

* * *

يا هجرة لك فاضت همة وعلى ... يشدها خافق بالعزم مضاء

تركت مكة والأحلام تغمرها ... والطفولة أطياب وأشذاء

والقلب وهن الحمى ما انفك مدلها ... به وللأرض أشواق وأصباء

إن غبت عنها براها الشوق واحتدمت ... نيرانه واستفاق الجرح والداء

وعشت دهرك في تذكارها وترا ... له الهوى نغم في الصدر بكاء

كلا كما ذاب تيها بصاحبه ... والأرض أم وأهل الأرض أبناء

والمرء ما زال حنانا إلى وطن ... وإنما وطن القلب الأحباء

إن عاش عاش بهم حتى إذا رحلوا ... فإنما هو أسداء وأنباء

* * *

وأنت في الغار والصديق افكما ... من جانب الله تثبيت وإرساء
مشت عناكب تحميه مناسجها ... وتدفع البغي ، والعدوان مشاء
وأرسلت مرحة أفنانها فنمت ... على مداخله فالغار أفياء
وأقبلت من بنات الدوح ساجمة ... كأنما الغار عش فيه ورقاء
لا الظن حام على الغار الحبيب ولا ... بدت من الشك للسارين سيماء
وكان يحميه من بغي المدا قدر ... تدرع الطهر إن الطهر أباء
من كان يعلم أن الظبية انشحت ... بما ينوء به الند الأشداء
في النهار غدت عينا مراقبة ... ما حاكه في غمار الكفر أعداء
وفي المساء استحالت رحمة وندى ... على النطاقين منها الزاد والماء
بالنفس والأهل والدنيا وما حفلت ... جناتها من مجالي السحر أسماء
ذات النطاقين أسماها الرسول بما ... أسدت بداها ، وللاحسان إسداء
باتت على الغار ترعاه وتحرسه ... كأنها مقلة بالسهد كحلاء
أغفت عيون الدراري في مطالعها ... وما لعين الهوى والحب إغفاء
حتى إذا غمر الليل الشعاب ولم ... يبن على الرمل في الليل الأدلاء
نشطت للسير والصديق في ملأ ... من اللائك ، والإيمان حداء
يرعاكما الله في حل ومرتحل ... ويثرب القصد ، والأهل الأوداء
وحين أشرفت ماجت بالسرور كما ... تلألأت بفريد الموج داماء
حيت تلقاك أنجادا وأردية ... وكم تشوقك أنجاد وأوداء
مشى إليك بنوها والهوى ضرم ... وكل نفس من الأشواق رمضاء
يستقبلونك أرواحا وأفئدة ... ويفتدونك والأجساد أنضاء
ذاب الحنين على أفواههم غنما ... وفي عيونك للشادين إرواء
على الشفاه أناشيد مزغردة ... وفي العيون من الأفراح لألاء
أذكى الهوى أنفسا للحب قد خلقت ... وللصبابة في العشاق إذكاء
أبكاهم الوجد في اللقيا وأضحكهم ... إن الوجد تضحاك وتبكاء
أصغت إليهم عيون الليل رانية ... وكم يطيب إلى الأحباب إصغاء
وشك تسابيحهم للحب أغلة ... والحب مذ كان وشاح ووشاء
طوبى لها أن حمت جارا وأن طلعت ... على محياه أنوار وأضواء

رسالة الله منها وهي غراء ... طافت على الأرض نور الأولى فقدوا
أنوار أنفسهم ، والكفر ظلماء ... كأن كل سبيل من ضلالتهم
صحراء كالحة الأعطاف غبراء ... ضجت جفاء وعجت وحشة وبلى
كأنها القبر قامت منه أشلاء ... نامت عليها الدياجي وهي جاهمة
ومقلة الفجر فيها الدهر عمياء

* * *

لله شرعك شرعا واضحا جددا ... ما في تضاعيفه ريب وإخفاء
أنقى من الزهر في فينان نضرته ... وقد جلته يد للحسن بيضاء
ما زال غضا على الأيام مؤتلقا ... كالخلد ليس له ند وأكفاء
كم طهر القلب من بغي ومن دنس ... وكم صفت بصفاء القلب حوباء
والدين يمن وإحسان وميسرة ... وفرحة تسع الدنيا وأنداء
من ضاق بالعيش ذرعا أوجفته مني ... فالدين تعزية كبرى وتأساء
من صد عن بابه لم يرتشف أملا ... وعاودته من الكفران غماء
ولا اطمأنت له نفس ولا هدأت ... وكيف تهدأ في الطغيان أنواء
يطوي الحياة جحيما لا نعيم بها ... كأنما هي أوجاع وأدواء
يا هجرة طبرت حبا ومرحمة ... فالقوم فيها الأحياء الأخلاء
تقاسموا نعميات العيش وائتلفوا ... كما تآلف في الأجساد أعضاء
كل يرى لأخيه الخير أجمعه ... والخير موطنه الرهط الأعزاء
جرى الإخاء عليهم بهجة وسنا ... فاستعذبوه ، ودنيا الود فيحاء
كأن ألفتهم للأمين شجا ... وطعنة في صميم الكفر نجلاء
وطيبة الخير بيت ضم شملهم ... جلاله الدهر أبناء وآباء
لو أن قوى وعوا أسرار هجرته ... لما تناءى بهم بغض وشحناء
إن الحياة إذا يسرتها يسرت ... كأن إمرارها في الطعم إحلاء
وإن أودت بها شؤما وميسرة ... فإنما هي أتعال وأعباء
خلت من البهجة الكبرى جوانبها ... كأن إضحاكها في العين إبكاء
كل له ما يرى فليتمظ فطن ... فسرها اليسر والبأساء سراء
والحب أغن ما امتار الفؤاد بها ... وفيه للنفس إحياء وإعلاء
فقل ليهرب إما رمت مكرمة ... فوثق الحب إن الحب بناء

أنور العطار